مصطلح (الثقافة) – مفهومه ودلالاته وعلاقته بمصطلح (الحضارة)

م. د. أنفال ناصر طالب محمد الموسوي،
قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة البصرة، العراق

الملخص

يعد مصطلح الثقافة من أكثر المفاهيم تداخلاً وتعقيداً، ويسعى هذا البحث إلى تتبع ما تدل عليه مفردة الثقافة لغةً واصطلاحاً، إن مفهوم الثقافة بالمعنى التقليدي العام في المجتمع مقارب للمعنى اللغوي للمادة في اللغتين العربية والإنجليزية الذي يحيل إلى تنمية العقل والإحاطة من كل علمٍ بجانب ، وقد تعددت تعريفات مصطلح الثقافة بتعدد الحقول المعرفية التي سعت للإحاطة بأبعاد هذا المصطلح موظفةً إياه بما يخدم أهدافها كعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والأثنولوجيا واللسانيات والتاريخ والفلسفة وغيرها. وخلص البحث إلى سعة مفهوم الثقافة وشموله فهو لا يرادف الحضارة بل يتضمنها بوصفها جانباً من جوانب الثقافة، فالثقافة تشتمل على كل ما يحيط بحياة الشعوب وعاداتهم ومعتقداتهم سواءٌ أكانت تلك الشعوب منتميةً إلى مجتمعٍ مدني متحضر أم إلى مجتمعٍ بدوي أو قبلي، إذ إن جميع الشعوب – على اختلاف درجة تحضرها – تمتلك ثقافة خاصةً بها تعكس رؤيتها للعالم.

الكلمات المفتاحية : الثقافة، الحضارة، المدنية، البدائية، الأنثروبولوجيا الثقافية.

المعنى اللغوي للثقافة :

يتضمن معنى مادة (ث ق ف) في المعجم تعديل الشيء وتقويمه , قال الخليل :

" الثقاف حديدة تسوى بها الرماح ونحوها ... والثقف مصدر الثقافة , وفعله ثقف , وثقفت الشيء ، وهو سرعة تعلمه , وقلب ثقف أي سريع التعلم والتفهم " (الفراهيدي، د.ت، صفحة ١٣٨،١٣٩، مجلد ٥ ، ثقف) .

وقد وردت هذه المادة في سياقٍ يتضمن صفةً يمتدح بها عقل المرء :

" قال أعرابي : إني لثقف لقف راوٍ رامٍ شاعر " (الفراهيدي، د.ت، صفحة ١٣٨ ، مجلد ٥) في إشارةٍ الى نباهته وفطنته .

وحدد ابن فارس لمادة (الثاء والقاف والفاء) أصلاً واحداً يرتبط بالتقويم , يقول :

" الثاء والقاف والفاء كلمة واحدة إليها يرجع الفروع , وهو إقامة درء الشيء , ويقال ثقفت القناة إذا أقمتَ عوجها ... ورجل ثقف لقف وذلك أن يصيب علم ما يسمعه على استواء , ويقال ثقفت به إذا ظفرت به " (ابن فارس، ١٩٩٩، صفحة ٣٨٢،٣٨٣ ، مجلد ١، ثقف) .

فالمعنى اللغوي للثقافة يتضمن التصويب والتعديل والتقويم مادياً كإقامة الشيء المعوج , أو معنوياً كتأديب الإنسان وتهذيبه وتعليمه فيصبح حاذقاً فطناً في العلم والصناعة :

" ثقف ثقفاً صار حاذقاً فطناً فهو ثقف , وثقف العلم والصناعة , أي حذقهما , وثقف الرجل في الحرب أدركه وثقف الشيء ظفر به , وثقف الإنسان أدبه وهذبه وعلمه " (مصطفى، الزيات، عبد القادر، و النجار، ١٩٨٩، صفحة ٩٨ ، مجلد ١ ، ثقف) .

وتجدر الإشارة الى أن دلالات التأديب والتهذيب والتعليم تمثل معاني مجازيةً متأخرةً ، فقد جاء في أساس البلاغة :

" ومن المجاز : أدّبه وثقّفه ، ولولا تثقيفك وتوقيفك لما كنت شيئاً ، وهل تهذبت وتثقفت إلا على يدك " (الزمخشري، ٢٠٠١، صفحة ٨١ ثقف)

ويمثل المعنى التقليدي العام للثقافة في الاستعمال الشائع والمتعارف عليه اليوم امتداداً للمعنى اللغوي المتقدم لمادة (ثقف) في العربية ، وامتداداً لكلمة (ثقافة) "Culture" في اللغة الإنكليزية المأخوذة من الأصل اللاتيني "Cultura" ، وهو مصدر يدل على الحرث والزراعة والنماء وإصلاح الشيء وتهذيبه (العمر، ٢٠١٦، صفحة ٣٢١) (الحبابي، ١٩٧٢، صفحة ٩٧) (مؤنس، ١٩٧٨، صفحة ٣٢٤) ، ثم انتقلت الكلمة لتدل على تنمية العقل والذوق الذي يتضمن الإنماء العقلي والأدبي (العمر، ٢٠١٦، صفحة ٣٢١) ، وقد استعملت للدلالة على تهذيب الروح وتهذيب العقل أو تهذيب الإنسان ، وربما استعمل اللفظ في معنى عبادة الله على اعتبار أن العبادة تقوم بتهذيب الفعل وترويضه ، ومنذ عهد الرومان ارتبط معنى الثقافة بالإنسانيات من أدبٍ ولغةٍ ونحوٍ ومنطقٍ وفلسفةٍ دون العلوم الطبيعية ، وفي عصر النهضة ظلت دلالة هذه اللفظة مرتبطةً بالفنون والآداب الإنسانية (مؤنس، ١٩٧٨، صفحة ٣٢٤) .

وفي ضوء ذلك عرّفت الثقافة بمعناها الشائع في المجتمع بأنها : " مجموع المعارف المكتسبة التي تخولنا تنمية روح التمييز والدقة والنقد ، وتكوّن لدينا ذوقاً سليماً , وقدرة على الحكم والاستدلال بالحجة القويمة " (الحبابي، ١٩٧٢، صفحة ٩٧) .

والمثقف في العرف الاجتماعي هو الشخص المتعلم ، أو الذي يتخصص في حقل من حقول المعرفة، أو ذلك الشخص الذي يمتلك الخبرة والمعرفة والعادات السلوكية الملائمة ، ويأخذ من كل علمٍ بطرف، فتكون له معرفة موسوعية، وله رأي وحضور معرفي على مختلف الصُعُد (حسن، ١٩٩٢، صفحة ٢٢١) .

المعنى الاصطلاحي للثقافة :

يعد مصطلح (الثقافة) "Culture" من أصعب المفاهيم تفسيراً وتحديداً ، فهناك عشرات التعاريف التي وضعها العلماء سعياً لتحديد أبعاده ، فتعددت تعريفاته بتعدد الحقول المعرفية التي وظفت هذا

المصطلح كعلم الاجتماع ، والأنثروبولوجيا ، والإثنولوجيا ، واللسانيات ، والتاريخ ، وعلم النفس ، والفلسفة ، وعلم الطب النفسي ، والاقتصاد ، والسياسة ، والجغرافيا (عماد، ٢٠١٦، صفحة ٣١) (الرويلي و البازعي، ٢٠٠٢، صفحة ١٤٠) .

بل إن مدى السياقات التي تظهر فيها هذه المفردة صارت تتضارب تضارباً استثنائياً كمصطلحات : الثقافة العليا ، والثقافة التراثية ، والثقافة الجماهيرية ، والثقافة الشعبية ، والثقافة القومية ، والثقافة المحلية ، والثقافة الإباحية ، والثقافة السوداء ، والثقافة العرقية ، وثقافة الشتات ، وثقافة الشوارع ، وثقافة المستهلك ، والثقافة المادية ، وثقافة الإعلام ، والصدمة الثقافية ، والتنوع الثقافي ، والتعددية الثقافية ، والنقد الثقافي ، والتطور الثقافي ، والحروب الثقافية ... وغير ذلك من المصطلحات (بينيت، غروسبيرغ، و موريس، ٢٠١٠، صفحة ٢٢٥ ـ ٢٢٧) .

إن أول من عرّف الثقافة بمعناها الأنثروبولوجي الأوسع هو عالم الأنثروبولوجيا إدوارد تايلور بأنها : ذلك الكل المركب والمعقد الذي يشتمل على المعارف ، والمعتقدات ، والفنون ، والأخلاق ، والقوانين ، والأعراف ، والتقاليد ، والفلسفة ، والأديان ، والقدرات ، والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من مجتمعه الذي يعيش فيه بوصفه عضواً في ذلك المجتمع (ميشيل، ١٩٨٠، صفحة ٩٤،٩٣) (لومبار، ١٩٩٧، صفحة ١٥٣،١٥٢) (كوش، ٢٠٠٢، صفحة ٢٠) (العمر، ٢٠١٦، صفحة ٣٢٢) .

ويعرفها عالم الأنثروبولوجيا فرانز بواس " بأنها الكل المتكامل للأفعال والنشاطات العقلية والطبيعية التي تميز السلوك الجماعي الفردي للأفراد والمرتبطين بعضهم ببعض بالمحيط الطبيعي " (العمر، ٢٠١٦، صفحة ٣٢٢) .

وبعبارةٍ أخرى تمثل الثقافة طريقة وأسلوب الحياة بجميع مقوماتها وتفاصيلها متضمنةً كل ما يقوم به الإنسان من جهودٍ ونشاطات مما يميز شعباً عن شعب ويجعل الإنسان مختلفاً عما سواه من الحيوان (خرما، ١٩٧٩، صفحة ٢١٨) (مؤنس، ١٩٧٨، صفحة ٣٢٦) ، أي انها تشمل كل شيء في حياة الشعب ، طريقة حياته ، وطريقة تفكيره ، ونظرته الى الحياة (مؤنس، ١٩٧٨، صفحة ٣٢٥) .

ولأهمية هذا الجانب نجد أن فرعاً من فروع علم الأنثروبولوجيا يحمل عنوان الأنثروبولوجيا الثقافية ، وقد ظهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بوصفه فرعاً مستقلاً عن الأنثروبولوجيا العامة ، وبذلك فقد أصبحت الثقافة مجالاً أو موضوعاً يختص به علمٌ من العلوم الإنسانية ، بل أصبحت اليوم مصطلحاً من مصطلحات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا معاً (الشماس، ٢٠٠٤، صفحة ٩٨) (يشوتي، ٢٠٠٥، صفحة ٥٢) .

وتعرّف الأنثروبولوجيا الثقافية بأنها ذلك العلم الذي يدرس الإنسان بوصفه عضواً في مجتمعٍ له ثقافة معينة ، ويكون سلوك الإنسان متوافقاً مع سلوك الأفراد في المجتمع الذي ينتمي إليه ، فيتحلى بقيمه وعاداته ، ويدين بنظامه ، ويتحدث بلغة قومه ، ويعنى هذا الفرع بدراسة الثقافة الإنسانية ، وأساليب

حياة الإنسان النابعة من ثقافته سعياً الى فهم الظاهرة الثقافية وتحديد عناصرها ، كما يدرس عمليات التغير الثقافي ، والتمازج الثقافي ، وتحديد الخصائص المتشابهة بين الثقافات بهدف تفسير المراحل التطورية لثقافةٍ معينةٍ في مجتمعٍ معين ، وهو يدرس الشعوب القديمة والمعاصرة على حدٍ سواء (الشماس، ٢٠٠٤، صفحة ٩٦) .

وفي ضوء علاقة الثقافة بالفكر يعرّف غي روشيه الثقافة بأنها " مجموعة من العناصر التي تتعلق بطرق التفكير والشعور والسلوك ، وهذه الطرق صيغت في قواعد واضحة نوعاً ما ، وتستخدم ـ لأن جمعاً من الأشخاص قد اكتسبها وتعلمها وشارك فيها ـ استخداماً موضوعياً ورمزياً من أجل تكوين هؤلاء الأشخاص في جماعة خاصةٍ ومتميزةٍ " (الغانمي، ١٩٨٩، صفحة ٦٤،٦٣) .

ومن أبسط تعريفات الثقافة وأكثرها وضوحاً تعريف عالم الاجتماع روبرت بيرستد بأنها : " ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه ، أو نقوم بعمله ، او نتملكه كأعضاء في المجتمع " (تومبسون، إليس، و فيلدافسكي، ١٩٩٧، صفحة ٩) ويُبرز هذا التعريف المفهوم المركب للثقافة التي تتكون من عناصر فكرية ، وسلوكية ، ومادية (تومبسون، إليس، و فيلدافسكي، ١٩٩٧، صفحة ٩) .

وقد حدد العالمان ديفيد انغليز و جون هيوسون تعريفاً للثقافة يتضمن ستة أجزاء هي :

١. إن الثقافة تتألف من أنماطٍ فكريةٍ ، وقيمٍ ، ومعتقدات شائعةٍ بين مجموعةٍ من الأفراد .
٢. لكل مجموعة ثقافتها الخاصة التي تميزها عن المجموعات الأخرى .
٣. تحتوي الثقافة على معنى يمكن للفرد من خلاله أن يفهم ويستجيب فكرياً وعاطفياً لما يدور حوله من أمور .
٤. تتجسد الأفكار والقيم والمعتقدات في الرموز التصويرية أو الكتابية التي ينتجها الإنسان .
٥. يتم تعلم الثقافة من خلال انتقالها عبر الأجيال .
٦. الثقافة اعتباطية لأنها من نتاج الإنسان ، فهي ليست فعلاً من أفعال الطبيعة ، ولذلك فهي معرّضةٌ للتغير بتغير ظروف حياة المجموعة (إنغليز و هيوسون، ٢٠١٣، صفحة ١٨،١٧) .

ويعد علم اللغويات من الأقسام الأساسية للأنثروبولوجيا الثقافية ، إذ يدرس علماء الأنثروبولوجيا اللغة في سياقها الاجتماعي والثقافي ، ويمثل علم اللغة الأنثروبولوجي واحداً من أبرز فروع علم الأنثروبولوجيا ، وهو يهتم بدراسة اللغة في علاقتها بالبيئة التي تنشأ فيها بوصفها وعاءً لثقافة الجماعة اللغوية وتجاربها التي تظهر في مختلف جوانب الحياة الثقافية والاجتماعية كالاحتفالات ، وممارسة الشعائر الدينية ، والممارسات الاجتماعية المختلفة التي تعكس معتقدات المجتمع وأفكاره (الشماس، ٢٠٠٤، صفحة ١٠٢) (حنا، حسام الدين، و جريس، د.ت، صفحة ٧،٦) .

لقد تناول الباحثون العلاقة بين اللغة والثقافة سعياً لتحديد الصلة بينهما ، ومدى تأثير كلٍ منهما بالآخر ، فقد اهتم علم اللغة الاجتماعي بدراسة " العلاقات بين الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية ، ومدى تأثر اللغة بالعادات والتقاليد والنظام الاجتماعي " (الحمزاوي، ١٩٧٧، صفحة ١٢٩) ، وكان لعلماء السيميائية عنايةٌ بدراسة الثقافة بوصفها النظام السيميائي الأشمل الذي يحوي كل الأنظمة الأخرى (قاسم و أبو زيد، د.ت، صفحة ١٨) .

إن الكلام وظيفةٌ إنسانية مكتسبة وغير غريزيةٍ ، وهو يمثل وظيفةً ثقافيةً ، إذ تنتقل اللغة من جيلٍ الى آخر بوساطة التعليم ، ويسمى ذلك بالنقل الثقافي الذي يمثل عنصراً مهماً في اكتساب اللغة (الحمزاوي، ١٩٧٧، صفحة ٣١) (علي، ٢٠٠٤، صفحة ٣٥) .

ويرى الأنثروبولوجي واللغوي إدوارد سابير أن من غير الممكن أن تفصل اللغة عن ثقافة متكلميها ، إذ إن نمط اللغة المتكلمة يفرض تأثيره على ثقافة الجماعة ، والثقافة هنا بمعناها الواسع الذي يشتمل على مختلف التصورات ، والعادات ، والمفاهيم التي تعبر عن رؤية الأفراد للعالم المحيط بهم (زكريا، ١٩٨٣، صفحة ٢٢٠) (ماريوباي، ١٩٧٣، صفحة ٢٠٦) .

ولعل أشهر مفهومٍ ناقش العلاقة بين اللغة والثقافة وتأثير كلٍ منهما في الآخر هو ما عُرف بفرضية (سابير - ورف) التي ترى أن كل لغةٍ تتضمن تصوراً خاصاً للعالم ، وهذا التصور يؤثر في الفكر ويعمل على تنظيمه ، وبعبارةٍ أخرى فإن الطريقة التي نفكر بها تصوغها وتحددها اللغة التي نتحدث بها ، كما أن الاختلاف بين اللغات ينتج اختلافاً بين أفكار متكلميها وثقافاتهم (زكريا، ١٩٨٣، صفحة ٢٢٢) (جوزيف، لف، و تيلر، ٢٠٠٦، صفحة ٨٣، مجلد٢) (يوسف، ١٩٩٠، صفحة ١٥٣).

بين مصطلحي الثقافة والحضارة :

مفردة (الحضارة) في اللغة مشتقة من مادة (ح ض ر) التي تدل على إيراد الشيء ومشاهدته ، والحضر خلاف البدو ، والحضارة : السكون بالحضر والإقامة فيه وهي على خلاف البداوة ، وجمعها : حضارات (ابن فارس، ١٩٩٩، صفحة ٧٦،٧٥، مجلد٢ ، حضر) (الأصفهاني، د.ت، صفحة ٢٤١ ، حضر) (العايد، وآخرون، ١٩٨٨، صفحة ٣٢٧ ، حضر).

فالحضارة بالمفهوم اللغوي تشير الى الإقامة في المدن على خلاف البداوة التي تشير الى الإقامة في البادية . وتقابلها في اللغة الإنجليزية كلمة "Sivilization" التي تدل على المدنية والحضارة (ميشيل، ١٩٨٠، صفحة ٦١) (السامرائي، ١٩٧٧، صفحة ٦) ، وتشير الى التقدم المادي وترجع في أصلها اللغوي الى تكون المدن ، فقد شاعت كلمة (المدنية) في عصرنا الحديث ، وهي مشتقة من (المدينة) على طريقة النسب في اللغة العربية ، أو على طريقة المصدر الصناعي (كوش، ٢٠٠٢، صفحة ٢١) (السامرائي، ١٩٧٧، صفحة ٧،٦) ، ويظهر - مما تقدم - التوافق والتشابه في دلالة مفردتي الحضارة والمدنية في كلٍ من اللغتين العربية والإنجليزية .

وتعرّف الحضارة بأنها : " مجموع الخصائص الاجتماعية والدينية والخلقية والتقنية والعلمية والفنية الشائعة في شعبٍ معين كالحضارات الهندية ، واليونانية ، والعربية " (العايد، وآخرون، ١٩٨٨، صفحة ٣٢٧) .

وقد تعددت وجهات النظر المطروحة حول العلاقة بين مصطلحي الثقافة والحضارة ، إذ اختلف الباحثون في تحديد العلاقة بينهما لما يتميز به هذان المصطلحان من تقارب دفع بعضهم الى الإعلان عن الترادف بينهما ، ويرى الدكتور معن زيادة " أن تاريخ البشرية قد عرف عدداً من الحضارات وكثيراً من الثقافات ، إلا أن هذا لا يعني أنه يمكن الفصل بين الثقافة والحضارة أو إقامة أي تعارض بينهما ، إنهما متداخلان دون أن يصلا الى حد التساوي ، وهما متمايزان دون أن يصل بهما ذلك الى درجة التباعد " (زيادة، ١٩٨٧، صفحة ٥٣) .

ويمكن إجمال أبرز ما طرح من وجهات النظر حول العلاقة الجدلية بين الثقافة والحضارة في أربعة آراء هي :

أولا / الترادف بين مصطلحي (الثقافة) و(الحضارة) :

فكل منهما يمثل الآخر ويدل عليه ، إذ إن من الباحثين من يساوي بينهما ، ويرى أن المصطلحين معاً قابلان لتعويض أحدهما بالآخر، فيجعل من مستلزمات الثقافة الاستقرار في منطقةٍ جغرافيةٍ معينةٍ ، واستثمار الأرض بالزراعة ، والتعاون بين أفراد المجتمع لتحقيق التطور العمراني ، ومن مستلزماتها ايضاً اختراع الكتابة . كما أن الحضارة تعني الإقامة في الحواضر ، أي المدن ، بخلاف البداوة ، والحضارة بهذا المعنى تعني الاستقرار (العمر، ٢٠١٦، صفحة ٣٢١،٣٢٢) (يشوتي، ٢٠٠٥، صفحة ٥٣) .

ويمكننا القول إن أول من رادف بين مصطلحي الثقافة والحضارة هو إدوارد تايلور الذي أعطى المفهومين تعريفاً واحداً ، فقد ابتدأ تعريفه بالمرادفة والمساواة بين هذين المصطلحين وعدم التمييز بينهما بقوله (عماد، ٢٠١٦، صفحة ٣١) (يشوتي، ٢٠٠٥، صفحة ٥٣) : " الثقافة أو الحضارة بالمعنى الإثنوغرافي الواسع : هي كلٌ مركب يشتمل على المعارف ، والمعتقدات ، والفن والقانون ، والأخلاق ، والتقاليد ، وكل القابليات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضوٍ في مجتمعٍ معين " (عماد، ٢٠١٦، صفحة ٣١) .

فالثقافة في ضوء ذلك مرادفة لمصطلح الحضارة ، ومناقضة لمصطلح الهمجية " Barbarism " ومصطلح البدائية "Primitive" الذي لا يحظى بالقبول المطلق من قبل الكثير من العلماء ؛ لأنه يخص المجتمع الغربي المتمدن بالثقافة وينظر الى الشعوب غير المدنية نظرة دونية (لوينز، ٢٠٠٩، صفحة ٢٨١) (مونتاغيو، ١٩٨٢، صفحة ٣٦ ، ٨٥) (السامرائي، ١٩٧٧، صفحة ٦) .

ويرى ماريوباي أن كلمة ثقافة في مدلولها التقليدي الشائع ترادف الحضارة فهي " ترتبط بالممارسة المتقدمة للحضارة التي عادة ما تعبر عن نفسها عن طريق اللغة المكتوبة وتشمل أشياء مثل الأدب والشعر والفلسفة والعلم والحصيلة الفكرية والمستويات المرتفعة للحياة والاتصال وحفظ الصحة " (ماريوباي، ١٩٧٣، صفحة ٢٠٦) ، إذ قد توظف الثقافة " للدلالة على مجموع الجوانب الأخلاقية ، والفكرية ، والذوقية للحضارة " (حسن، ١٩٩٢، صفحة ٢٢١) .

كما عرّف المؤرخ لوسيان فيفر الحضارة تعريفاً معادلاً للثقافة ومرادفاً لها في الاستخدام الإثنوغرافي " الذي يشير الى مجموعةٍ من السمات التي قد تسجل عند دراسة الحياة الجمعية لمجموعةٍ من البشر ؛ مجموعةٍ تحتضن الجوانب المادية والفكرية والأخلاقية والسياسية للحياة الاجتماعية " (بهاوي، ٢٠١٣، صفحة ١٠١) .

ثانياً / الاختلاف والتمايز بين مصطلحي (الثقافة) و(الحضارة) :

كانت الثقافة ـ في البداية ـ تمثل مصطلحاً يتبادل المواقع مع مصطلح الحضارة ، ثم تطور استعمال مفردة الثقافة في أواخر القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين مما زاد من التوتر بين هذين المصطلحين جاعلاً لكلٍ منهما سماته الخاصة التي تميزه عن الآخر (بينيت، غروسبيرغ، و موريس، ٢٠١٠، صفحة ٢٢٩) .

وقد دعا عالم الاجتماع مارسيل موس الى عدم المعادلة بين مصطلحي الثقافة والحضارة ؛ إذ يرى علماء الاجتماع أن الحضارة ليست مقصورةً على شعبٍ بعينه ، ذلك أنها تتسم بالمنطقية والعمومية والتقدمية ، فهي قابلة للانتشار ، إذ يظهر الانتشار العالمي الحضاري للعلم والتقنيات الحديثة بوضوح عبر العالم كله ، فالحضارة عالمية فهي لا تقتصر على مجتمعٍ دون آخر ، كما أنها قابلة للتوسع والانتشار والانتقال عبر المجتمعات .

أما الثقافة فهي محلية خالصة ، وهي ترتبط بمجتمعٍ معينٍ وتتعلق بالحقائق الفكرية ، والفنية ، والدينية ، فهي تمثل عالم الفن والدين القائم بذاته ، والمناهض للعالم المادي للحضارة ، والثقافة على وفق هذا المنظور تتسم بأنها شخصية ، فهي لا تعد أمراً وطنياً فحسب ، بل قد تعد أمراً شخصياً .

وقد ارتبط مفهوم الحضارة الكونية بفرنسا التي ترى أن الحضارة تمثل كلاً معقداً ، ومفهوماً واسعاً يرتبط بما تفوق به المجتمع الغربي سياسياً ، واقتصادياً ، ودينياً ، وأخلاقياً ، واجتماعياً ، وتقنياً في الوقت الذي نرى فيه أن مفهوم الثقافة ظل يعكس الوعي الذاتي والشخصي في ألمانيا التي ترى أن الحضارة الأممية الكونية تمثل مصدر خطرٍ على الثقافات المحلية ، وأن الثقافة تمثل جانباً شخصياً ومحدوداً في الزمان والمكان ، ومتداخلاً في الهوية الوطنية (بهاوي، ٢٠١٣، صفحة ١٠١) (كوبر، ٢٠٠٨، صفحة ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥) .

ويؤكد الدكتور حسين مؤنس هذا المفهوم إذ يرى أن الحضارة تتسم بالعالمية ، ذلك أن العلوم تكون قواعدها النظرية والعملية واحدة ، فالعلوم عالمية لأنها لا تختلف من بلدٍ الى بلد ، وهي حضارة علمية وتقدمية تقوم على أساسٍ اقتصادي مادي يعتمد على المكسب والخسارة ، ومن الفنون ما هو عامٌ وعالمي كالهندسة المعمارية وتخطيط المدن ، وما يتعلق بالمنشآت والصناعات والاختراعات الحديثة ، والتزيين المعماري المعروف بالديكور، فهي تدخل في نطاق الحضارة بوصفها مفهوماً عالمياً .

أما الثقافة فهي ثمرة كل نشاطٍ إنساني محلي نابعٍ عن البيئة ، ومعبر عنها وعن تقاليدها ، كما أن من الفنون ما يتسم بطابعٍ شخصي ومحلي كالأدب ، والموسيقى ، والرسم ، والتصوير ، فهي تمثل تعبيراً عن فكرةٍ وشخصيةٍ معينةٍ ، ولهذا فهي تعد مظاهر ثقافيةً ترتبط بالبيئة التي نشأ فيها ذلك الفن ، وكلما كانت الظاهرة الحضارية أكثر التصاقاً بطبيعة البلد الذي قامت فيه فهي داخلةٌ في مضمار الثقافة ، ومعبرة عن سمات المجتمع الذي تنتمي اليه (مؤنس، ١٩٧٨، صفحة ٣١٨،٣١٧) ، وبعبارةٍ أخرى فإن الثقافة أكثر دلالة على التطورات الفردية ، أما الحضارة فتدل على التطورات الجماعية (كوش، ٢٠٠٢، صفحة ١٢) .

ومن الباحثين من فرّق بين مفهومي الثقافة والحضارة في ضوء التمييز بين الجانب المادي والجانب المعنوي ، وبين المحسوس والعقلي ، وبين الأشياء والأفكار ، فكان لهم رأيان في ذلك :

الأول / أن مفهوم الحضارة يرتبط بالوسائل المادية في الحياة الاجتماعية في ضوء ضرورات العمل ، والإنتاج ، والتكنولوجيا ، أما الثقافة فتشمل المظاهر المعنوية للحياة الاجتماعية ، وهي تمثل الجوانب الفكرية ، والتصورات الذهنية .

الثاني / يمثل مفهوماً معاكساً للرأي الأول ، إذ يرى أصحابه أن الحضارة تتضمن الجانب المعنوي ، وهي تشمل جميع الوسائل التي يلجأ اليها الإنسان بهدف تحقيق النمو المعرفي ، والأخلاقي ، والروحي في المجتمع ، وفي هذا الإطار فإن الفنون والفلسفة والدين والقانون تمثل مظاهر حضارية ، أما الثقافة فإنها تمثل الجانب المادي في الحياة ، وهي تتضمن جميع الوسائل التي يوظفها الإنسان في المجتمع بهدف التأثير على البيئة الطبيعية مما يتعلق بالعلوم والتكنولوجيا وتطبيقاتها (يشوتي، ٢٠٠٥، صفحة ٥٣) .

وقد عرض الفيلسوف علي عزت بيجوفيتش فكرته في تناقض مصطلحي الثقافة والحضارة وتعارضهما محدداً لكلٍ منهما مساراً تاريخياً ودينياً وأخلاقياً متباعداً ومتعارضاً مع الآخر ، منتصراً في نظريته للثقافة ومنتقداً بشدةٍ فكرة الحضارة ، فهو يربط الثقافة بالبعد المعنوي والميتافيزيقي وعالم السماء والمثل العليا وعلاقة الإنسان بتلك السماء التي هبط منها .

فالثقافة هي تأثير الدين على الإنسان ، وهي الفن الذي يكون به الإنسان انساناً ، وهي الخلق المستمر للذات ، والقدرة على التأمل ، في حين ترتبط الحضارة بعالم الأرض ، أو الطبيعة والعناصر المادية ،

فالحضارة على وفق هذا المنظور تمثل استمراراً للحياة الحيوانية ذات البعد الواحد ، والتبادل المادي بين الإنسان والطبيعة ، وتأثير الذكاء على الطبيعة أو العالم الخارجي ، وهي تعني فن العمل وصناعة الأشياء ، والقدرة على التعلم والتغيير المستمر للعالم (الميلاد، ٢٠١٠، الصفحات ٩٧ – ١٠٠) .

ثالثاً / تمثل (الثقافة) جانباً من جوانب (الحضارة) :

يرى عدد من الباحثين أن مفهوم الحضارة أوسع وأشمل من مفهوم الثقافة ، فهو يتضمن الثقافة وسواها ، إذ يرى عدد من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا المعاصرين أن مفردة الحضارة تستعمل للتعبير عن مجموعةٍ من الثقافات الخاصة التي تجمع بينها أوجه شبه ، أو لها أصول مشتركة .

فالحضارة الغربية مثلاً تتضمن ثقافات متعددة كالثقافة الفرنسية ، والثقافة الإنجليزية ، والثقافة الألمانية ، والثقافة الإيطالية ، والثقافة الأمريكية وغيرها ، أي أن مفهوم الثقافة يرتبط بمجتمعٍ معين في حين أن الحضارة تشمل مجموعات أكثر امتداداً في الزمان والمكان ، فالحضارة بهذا المفهوم هي حصيلة ثقافات العالم ، وهي محطة كبرى في مقابل المحطات الصغرى التي تمثل الثقافات (يشوتي، ٢٠٠٥، صفحة ٥٤،٥٣) (زيادة، ١٩٨٧، صفحة ٥٢،٥١) .

وفي ضوء ذلك فإن الحضارة بالاستخدام الإثنوغرافي الواسع والشامل للمصطلح تشير الى السمات المرتبطة بالحياة المجتمعية لمجموعةٍ من البشر من حيث الجوانب المادية ، والفكرية ، والأخلاقية ، والسياسية للحياة الاجتماعية (كوبر، ٢٠٠٨، صفحة ٣٩،٣٨) .

إن الحضارة على وفق هذا المنظور هي مفهوم شامل للجانبين المادي والمعنوي ، بينما تقتصر الثقافة على الجانب المعنوي فقط بوصفها ركناً من أركان الحضارة ، إذ يرتبط مصطلح (المدنية) بالجانب المادي والعمراني فقط ، بينما يتضمن مصطلح (الحضارة) مفهوم المدنية وسواها ، فالحضارة أوسع من العمران وأكثر شمولاً ، ذلك أن العمران والمدنية يمثلان جانباً من جوانب الحضارة ، وفرعاً من فروعها (زيادة، ١٩٨٧، صفحة ٥٠) ، و" لابد لكل حضارةٍ غربيةٍ أو شرقيةٍ من أن تنتظم المادة والروح معاً " (العايد، وآخرون، ١٩٨٨، صفحة ٣٢٧) .

رابعاً / تمثل (الحضارة) جانباً من جوانب (الثقافة) :

وهو الرأي الذي نميل إليه ، ونرتضيه ، ونجده أكثر دقةً من سواه ؛ لأنه يعكس المفهوم الواسع لمصطلح الثقافة ، فعلى وفق هذا المنظور تمثل الثقافة مفهوماً شاملاً يتضمن ثقافات المجتمعات المتقدمة والمتحضرة من جانب ، وثقافات المجتمعات البدائية من جانبٍ آخر ، على حدٍ سواء ، وبذلك تكون الحضارة جانباً من جوانب الثقافة ، وركناً من أركانها .

ويظهر هذا المفهوم الواسع لمصطلح الثقافة بجلاء في مجمل التعريفات المطروحة للثقافة في معناها الأنثروبولوجي ، وتعني فيه : الحصيلة الكلية للتقاليد ، والعادات ، والأعراف ، وطرائق الحياة لأي طائفةٍ اجتماعيةٍ سواءٌ أكانت متقدمةً حضارياً لدرجةٍ عاليةٍ ، أو متأخرةً وبدائيةً ، ومعنى هذا أن كل الجماعات عند عالم الأجناس البشرية ـ مهما صغرت أو كانت بدائيةً ـ لها ثقافتها الخاصة ، وكل الثقافات على درجةٍ واحدةٍ من المساواة (ماريوباي، ١٩٧٣، صفحة ٢٠٦) .

إذ يرى عددٌ من الباحثين أن للثقافة جانبين متكاملين يرتبط كلٌ منهما بالآخر هما :

١. الجانب المعنوي بوصف الثقافة نسيجاً من المعارف والأفكار والمعتقدات والقيم والمهارات والعادات والتقاليد وأنماط الأعمال والتفكير والاتجاهات والتأملات .
٢. الجانب المادي وهو يرتبط بما أنتجه العمل الإنساني من المدنية والعمران والأساليب الحضارية كالمباني ووسائل المواصلات والأطعمة والألبسة والأدوات والمؤسسات والإنجازات التقنية والتكنولوجية وغير ذلك من الأشياء المحسوسة .

وهذان الجانبان اللذان يؤلفان الثقافة يشكلان كلاً واحداً ، فكلٌ منهما يكمل الآخر ، ولهذا حين يختلّ أحد جانبي الثقافة فإنه يؤثر في الآخر تأثيراً كبيراً (الهيتي، ١٩٧٨، صفحة ٧٦) .

وفي ضوء ذلك فإن مفهوم الثقافة مفهومٌ عامٌ وشامل ، إذ لا يخلو مجتمع من المجتمعات من إرثٍ ثقافي يعكس معتقدات ذلك الشعب ، ويعبر عن أساليب حياته ونظرته الى العالم ، فالثقافة بجانبيها المعنوي والمادي تمثل نهجاً للحياة وإرثاً وخزيناً معرفياً تتناقله الأجيال ويكتسبه الأبناء عن الآباء.

الخاتمة :

تناول البحث مفردة (الثقافة) في اللغة والاصطلاح ، وعلاقتها بمفردة (الحضارة) ، ويمكن إجمال أبرز ما خلص إليه البحث في النقاط الآتية :

١. إن الأصل اللغوي لمفردة (الثقافة) في المعاجم العربية يشير الى دلالات التهذيب والتقويم مادياً ومعنوياً ، وتمثل الدلالة المعنوية امتداداً للدلالة المادية وتطوراً لها بوصفها دلالةً مجازيةً تعبر عن مفهوم التربية والتأديب والتهذيب العقلي والفكري للإنسان في المجتمع .
٢. إن الأصل اللاتيني لمفردة " Culture " قريب في معناه من الأصل العربي لمادة (ثقف) وذلك في دلالته على الحرث والنماء والإصلاح المادي ثم تطورت الدلالة لتشير الى الإنماء العقلي والأدبي.
٣. إن المعنى الشائع لمفردة الثقافة في المجتمع قريب من معناها اللغوي ، إذ إنها تشير الى الإنسان المتعلم وصاحب المعرفة المتنوعة والمتشعبة في مشاربها الذي حاز من كل علم بطرف .

٤. وظفت الكثير من العلوم في شتى الحقول المعرفية مصطلح (الثقافة) بما يخدم أهدافها ، فكان نتاج ذلك أن تعددت تعريفات هذا المصطلح وتشعبت ، ولعل أشمل تعريف للثقافة يظهر في حقل علم الأنثروبولوجيا وذلك للارتباط الكبير بين الثقافة وحياة الشعوب .

٥. من أبرز اهتمامات علم اللغة الاجتماعي دراسة العلاقة بين اللغة والثقافة فنتج عن ذلك نظريات سعت الى كشف التأثير المتبادل بين هذين الجانبين لعل أبرزها فرضية (سابير ـ ورف) التي تناولت هذه العلاقة كاشفةً عن دور اللغة في صياغة ثقافة الإنسان ورؤيته للعالم من جانب ، وانعكاس الملامح الثقافية للمجتمع في اللغة من جانبٍ آخر .

٦. تعددت الآراء المطروحة لدى الباحثين حول العلاقة بين مصطلحي الثقافة والحضارة , وقد أجملها البحث في أربعة آراء بين من رادف بين هذين المصطلحين ، ومن خالف ومايز بينهما ، وبين من جعل مصطلح الحضارة مشتملاً على الثقافة ، ومن وسع من مفهوم الثقافة فجعلها متضمنةً للحضارة والبداوة على حدٍ سواء ، والرأي الأخير هو ما تبناه علم الأنثروبولوجيا الذي يؤمن أن لكل طائفةٍ اجتماعية ـ متحضرةً كانت أم بدائيةً ـ ثقافتها الخاصة بها ،. وهو ما أخذ به هذا البحث وأيده ؛ لأن للثقافة مفهوماً واسعاً وشاملاً يتضمن سائر المجتمعات سواءٌ أكانت تلك الشعوب متقدمةً مادياً وعلمياً أم كانت تتخذ من البداوة نهجاً لها وأسلوباً لحياتها .

قائمة المصادر والمراجع

ابراهيم السامرائي. (١٩٧٧). *اللغة والحضارة* (الطبعة الأولى). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ابراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، و محمد علي النجار. (١٩٨٩). *المعجم الوسيط*. استانبول، تركية: مجمع اللغة العربية ، دار الدعوة.

أبو الحسين أحمد ابن فارس. (١٩٩٩). *معجم مقاييس اللغة*. (عبد السلام محمد هارون، المحقق) بيروت: دار الجيل.

أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي. (د.ت). *العين*. (مهدي المخزومي، و إبراهيم السامرائي، المحققون) بيروت، لبنان: دار ومكتبة الهلال ، سلسلة المعاجم والفهارس.

أحمد العايد، أحمد مختار عمر، الجيلاني بن الحاج يحيى، داود عبده، صالح جواد طعمة، و نديم مرعشلي. (١٩٨٨). *المعجم العربي الأساسي*. (أحمد مختار عمر، المحرر) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . لاروس.

آدم كوبر. (٢٠٠٨). *الثقافة . التفسير الأنثروبولوجي*. (تراجي فتحي، المترجمون) الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . سلسلة عالم المعرفة.

أشلي مونتاغيو. (١٩٨٢). *البدائية*. (محمد عصفور، المترجمون) الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . سلسلة عالم المعرفة.

الراغب الأصفهاني. (د.ت). *مفردات ألفاظ القرآن*. (صفوان عدنان داوودي، المحقق) قم: منشورات ذوي القربى ، دار القلم . دمشق ، دار الشامية . بيروت.

جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري. (٢٠٠١). *أساس البلاغة* (الطبعة الأولى). بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي.

جاك لومبار. (١٩٩٧). *مدخل الى الأثنولوجيا* (الطبعة الأولى). (حسن قبيسي، المترجمون) الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

جمعة سيد يوسف. (١٩٩٠). *سيكولوجية اللغة والمرض العقلي*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . سلسلة عالم المعرفة.

جون إي جوزيف، نايجل لف، و تولبت جي تيلر. (٢٠٠٦). *أعلام الفكر اللغوي . التقليد الغربي في القرن العشرين* (الطبعة الأولى). (أحمد شاكر الكلابي، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.

جون لوينز. (٢٠٠٩). *اللغة واللغويات* (الطبعة الأولى). (محمد العناني، المترجمون) عمان، الأردن: دار جرير للنشر والتوزيع.

حسين مؤنس. (١٩٧٨). *الحضارة . دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . سلسلة عالم المعرفة.

دوني كوش. (٢٠٠٢). *مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية . دراسة ..* (قاسم المقداد، المترجمون) دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

ديفيد إنغليز، و جون هيوسون. (٢٠١٣). *مدخل الى سوسيولوجيا الثقافة* (الطبعة الأولى). (لما نصير، المترجمون) بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

دينكن ميشيل. (١٩٨٠). *معجم علم الاجتماع*. (إحسان محمد، المترجمون) الجمهورية العراقية: منشورات وزارة الثقافة والإعلام . دار الرشيد للنشر.

زكي الميلاد. (٢٠١٠). *المسألة الثقافية من أجل بناء نظرية في الثقافة* (الطبعة الثانية). بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي . سلسلة الدراسات الحضارية.

سامي عياد حنا، كريم زكي حسام الدين، و نجيب جريس. (د.ت). *معجم اللسانيات الحديثة*. مكتبة لبنان ناشرون.

سعيد الغانمي. (١٩٨٩). *المعنى والكلمات*. بغداد: دار الشؤون الثقافية . الموسوعة الصغيرة.

سيزا قاسم، و نصر حامد أبو زيد. (د.ت). *مدخل الى السيميوطيقا . مقالات مترجمة ودراسات*. القاهرة، جمهورية مصر العربية: دار الياس العصرية.

طوني بينيت، لورانس غروسبيرغ، و ميغان موريس. (٢٠١٠). *مفاتيح اصطلاحية جديدة . معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع* (الطبعة الأولى). بيروت: المنظمة العربية للترجمة . مركز دراسات الوحدة العربية.

عبد الغني عماد. (٢٠١٦). *سوسيولوجيا الثقافة . المفاهيم والإشكاليات ... من الحداثة الى العولمة* (الطبعة الثالثة). بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

عيسى الشماس. (٢٠٠٤). *مدخل الى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) . دراسة ..* دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

ماريوباي. (١٩٧٣). *أسس علم اللغة*. (أحمد مختار عمر، المترجمون) منشورات جامعة طرابلس . كلية التربية.

محمد بهاوي. (٢٠١٣). *الطبيعة والثقافة* (الطبعة الثانية). المغرب: أفريقيا الشرق.

محمد رشاد الحمزاوي. (١٩٧٧). المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية. *حوليات الجامعة التونسية*.

محمد عزيز الحبابي. (١٩٧٢). اللغة والثقافة. *مجلة مجمع اللغة العربية*(الجزء الثلاثون).

محمد محمد يونس علي. (٢٠٠٤). *مدخل الى اللسانيات* (الطبعة الأولى). بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.

محمد يشوتي. (٢٠٠٥). الثقافة والحضارة والإديولوجيا. *مجلة علامات*(العدد ٢٤).

معن خليل العمر. (٢٠١٦). *المدخل الى علم الاجتماع* (الطبعة الأولى). دولة الإمارات العربية المتحدة ، الجمهورية اللبنانية: دار الكتاب الجامعي.

معن زيادة. (١٩٨٧). *معالم على طريق تحديث الفكر العربي*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . سلسلة عالم المعرفة.

ميجان الرويلي، و سعد البازعي. (٢٠٠٢). *دليل الناقد الأدبي* (الطبعة الثالثة). الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.

ميشال زكريا. (١٩٨٣). *الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام* (الطبعة الثانية). لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

ميكل تومبسون، ريتشار إليس، و آرون فيلدافسكي. (١٩٩٧). *نظرية الثقافة*. (علي سيد الصاوي، المترجمون) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . سلسلة عالم المعرفة.

نايف خرما. (١٩٧٩). *أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة* (الطبعة الثانية). الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . سلسلة عالم المعرفة.

نهاد فليح حسن. (١٩٩٢). الثقافة واللغة. *مجلة آداب المستنصرية*(العددان ٢٢ ، ٢٣).

هادي نعمان الهيتي. (١٩٧٨). *الاتصال والتغير الثقافي*. الجمهورية العراقية: منشورات وزارة الثقافة والفنون . الموسوعة الصغيرة.